* وَقَالَتْ أَعْرَابِيَّةٌ [تَصِفُ سَحَابًا أَتَى بَعْدَ جَدْبٍ وَقَحْطٍ أَصَابَهُمْ] :[١]

أَلَـــــمْ تَرَنَـــــا غَبَّنَـــــا مَاؤُنَـــــا   زَمَانًـــــا فَظَلْنَـــــا نَكُـــــدُّ الْبِئَـــــارَا[٢]
فَلَمَّـــــا غَـــــزَا الْمَـــــاءُ أَوْطَانَـــــهُ   وَجَـــــفَّ الثِّمَـــــادُ فَصَـــــارَتْ حِـــــرَارَا[٣]
وَضَـــــجَّتْ إِلَى رَبِّهَـــــا فِي السَّـــــمَاءِ   رُءُوسُ الْعِضَـــــاهِ تُنَـــــاجِي السِّـــــرَارَا[٤]

[١] أَتَيْتُ بِالْقَصِيدَةِ كَامِلَةً مِنْ دَوَاوِينِ الْأَدَبِ ، وَوَجَدْتُهَا - إِلَّا بَيْتَيْنِ - فِي كِتَابِ « الْمَطَرِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالرِّيحِ » لِلْحَافِظِ ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا (ت ٢٨١هـ) ، ثُمَّ فِي « حَمَاسَةِ الْخَالِدِيَّيْنِ » (ت ٣٨٠هـ) ، وَفِي « دِيوَانِ الْمَعَانِي » لِأَبِي هِلَالٍ الْعَسْكَرِيِّ (ت ٣٩٥هـ) ، وَفِي « الْبَصَائِرِ وَالذَّخَائِرِ » لِلتَّوْحِيدِيِّ (ت ٤٠٠هـ) ، وَفِي « أَمَالِي الْمُرْتَضَى » (ت ٤٣٦هـ) ، وَفِي « الْحَمَاسَةِ الشَّجَرِيَّةِ » لِابْنِ الشَّجَرِيِّ (ت ٥٤٢هـ) . وَالْعَجِيبُ أَنِّي لَمْ أَجِدْ فِي تَحْقِيقِ هَذِهِ الْكُتُبِ ذِكْرًا لِكِتَابِ ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا ، فَلَعَلَّ مُحَقِّقِيهَا لَمْ يَهْتَدُوا إِلَيْهِ مَعَ أَنَّهُ أَقْدَمُ مَصْدَرٍ وَالْقَصِيدَةُ فِيهِ كَامِلَةٌ إِلَّا بَيْتَيْنِ . (بسام)

[٢] يُقَالُ : غَبَّ فِي الزِّيَارَةِ : زَارَ فِي أَوْقَاتٍ مُتَبَاعِدَةٍ ، وَفِي الْأَمْثَالِ - وَلَيْس بِحَدِيثٍ نَبَوِيٍّ - : « زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا » . فَظَلْنَا : أَيْ فَظَلِلْنَا أَوْ ظَلَلْنَا بِالفَتْحِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ ، ﴿ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ﴾ أَيْ ظَلِلْتَ أو ظَلَلْتَ وَالْكَسْرُ أَوْلَى . وَكَدَّ الشَّيْءَ : نَزَعَهُ بِيَدِهِ يَكُونُ ذَلِكَ فِي الْجَامِدِ وَالسَّائِلِ ، وَالْكُدَادَةُ : مَا يَبْقَى فِي أَسْفَلِ الْقِدْرِ مِنَ الْمَرَقِ وَهُوَ الشَّيْءُ الْقَلِيلُ ، وَالكَدُّ : الْإِلْحَاحُ فِي الطَّلَبِ . تَصِفُ انْقِطَاعَ الْمَطَرِ عَنْهُمْ زَمَانًا مِمَّا أَلْجَأَهُمْ إِلَى تَتَبُّعِ مَا تَبَقَّى مِنْ مَاءٍ فِي قُعُورِ الآبَارِ . وفِي رِوَايَةٍ : (أَلَمْ تَرَنا عَزَّنَا مَاؤُنَا = سِنِينَ فَظَلْنَا ...) .

[٣] يُقَالُ : « غَزَا الْمَاءُ أَوْطَانَهُ » إِذَا لَحِقَ بِقَرَارَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَحَسَرَ عَنْهُ الْمَدَدُ . الثِّمَادُ : الْمَاءُ الْقَلِيلُ ، وَالْحِرَارُ : جَمْعُ حَرَّةٍ ، وَهِيَ الْأَرْضُ السَّوْدَاءُ الْعَطْشَى . وَالْحَرَّةُ : أَرْضٌ ذَاتُ حِجَارَةٍ سُودٍ نَخِرَةٍ كَأَنَّمَا أُحْرِقَتْ بِالنَّارِ .

[٤] فِي رِوَايَةٍ : (وَعَجَّتْ عَجِيجًا إِلَى رَبِّهَا) . الْعِضَاهُ : كُلُّ شَجَرٍ يَعْظُمُ وَلَهُ شَوْكٌ كَالطَّلْحِ وَالسَّمُرِ ، وَهُوَ مِنْ أَصْلَبِ الشَّجَرِ وَأَكْثَرِهِ تَحَمُّلًا لِلْجَفَافِ وَمَعَ ذَلِكَ ضَجَّ . تُنَاجِي السِّرَارَا : السِّرَارُ هُوَ آخِرُ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ حِينَ يَخْتَفِي الْقَمَرُ ، أَيْ تُنَاجِي الظَّلَامَ وَالصَّمْتَ ، كِنَايَةٌ عَنِ التَّوَسُّلِ فِي الْخَفَاءِ .

وَفَتَّحَــــــــــتِ الْأَرْضُ أَفْوَاهَهَــــــــــا ... عَجِـــــيجَ الْجِمَـــــالِ وَرَدْنَ الْجِفَـــــارَا[١]

لَبِسْـــــنَا لَدَى عَطَـــــنٍ لَيْلَـــــةً ... عَلَى الْيَـــــأْسِ آتَابَنَـــــا وَالْخِمَـــــارَا[٢]

وَقُلْنَـــــا : أَعِـــــيْرُوا النَّـــــدَى حَقَّـــــهُ ... وَصَـــــبْرَ الحِفَـــــاظِ وَمُوتُـــــوا حِـــــرَارَا[٣]

فَـــــإِنَّ النَّـــــدَى لَـــــعَسَى مَـــــرَّةً ... يَـــــرُدُّ إِلَى أَهْلِـــــهِ مَـــــا اسْـــــتَعَارَا[٤]

فَبَيْنَـــــا نُرَمِّـــــقُ أَحْشَـــــاءَنَا ... أَضَـــــاءَ لَنَـــــا عَارِضٌ فَاسْـــــتَنَارَا[٥]

وَأَقْبَـــــلَ يَزْحَـــــفُ زَحْـــــفَ الْكَسِـــــيرِ ... سِـــــيَاقَ الـــــرِّعَاءِ الْبِطَـــــاءَ الْعِشَـــــارَا[٦]

تُغَـــــنِّي وَتَضْـــــحَكُ حَافَاتُـــــهُ ... خِـــــلَالَ الْغَمَـــــامِ وَتَـــــبْكِي مِـــــرَارَا[٧]

كَأَنَّـــــا تُـــــضِيْءُ لَنَـــــا حُـــــرَّةٌ ... تَشُـــــــدُّ إِزَارًا وَتُـــــــرْخِي إِزَارَا[٨]

---

[١] الجِفَارُ (مُفْرَدُ جُفْرَةٍ) : الْآبَارُ الْوَاسِعَةُ . وَتَقْدِيرُ النَّصْبِ فِي « عَجِيجَ » : (وَفَتَّحَتِ الْأَرْضُ أَفْوَاهَهَا تَعُجُّ عَجِيجَ الْجِمَالِ وَرَدْنَ الْجِفَارَا) . الْعَجِيجُ : الصُّرَاخُ الشَّدِيدُ وَالضَّجِيجُ . تَقُولُ : تَشَقَّقَتِ الأَرْضُ مِنْ شِدَّةِ الظَّمَإِ ، ثُمَّ شَبَّهَتْ شُقُوقَهَا الْفَاغِرَةَ طَلَبًا لِلْمَاءِ بِأَفْوَاهِ الْإِبِلِ الَّتِي تَرِدُ الْمَاءَ وَلَهَا عَجِيجٌ . (بِعِبَارَةٍ أُخْرَى) : تَصَدَّعَتِ الْأَرْضُ مِنَ الْجَفَافِ حَتَّى كَأَنَّ شُقُوقَهَا أَفْوَاهٌ تَصْرُخُ كَصُرَاخِ الْإِبِلِ الْعَطْشَى حِينَ تَرِدُ الْمَاءَ فَلَا تَجِدُهُ .

[٢] الْعَطَنُ : مَبْرَكُ الْإِبِلِ وَمَرْبِضُ الْغَنَمِ عِنْدَ الْمَاءِ . ضَرَبَ فُلَانٌ بِعَطَنٍ : رَوَّى إِبِلَهُ ثُمَّ أَقَامَ عَلَى الْمَاءِ . فَإِنْ بَرَكَتِ الْإِبِلُ هُنَاكَ فَمَعْنَاهُ انْتِظَارُ الْمَوْتِ . الْآتَابُ : جَمْعُ إِتْبٍ ؛ قَالَ ابْنُ سِيده فِي الْمُحْكَمِ : « وَهُوَ بُرْدٌ يُؤْخَذُ فَيُشَقُّ ، ثُمَّ تُلْقِيهِ الْمَرْأَةُ فِي عُنُقِهَا مِنْ غَيْرِ جَيْبٍ وَلَا كُمَّيْنِ . وَالْإِتْبُ : دِرْعُ الْمَرْأَةِ . وَقِيلَ : الْإِتْبُ مِنَ الثِّيَابِ : مَا قَصُرَ فَنَصَفَ السَّاقَ » انْتَهَى . قِيْلَ : لِبَاسٌ قَصِيرٌ تَلْبَسُهُ الْفَتَاةُ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ . تَقُولُ : أَقَمْنَا لَيْلَةً - وقَدْ غَشِيَنَا الْيَأْسُ - لَابِسِينَ ثِيَابَنَا كَمَنْ يَلْبَسُ كَفَنَهُ انْتِظَارًا لِلْمَوْتِ . وَلَعَلَّ مُرَادَهَا بِقَوْلِهَا « آتَابَنَا وَالْخِمَارَا » أَنْ تَصِفَ بُؤْسَ ثِيَابِهِمْ وَمَا أَصَابَهَا مِنْ رَثَاثَةٍ ، أَوْ إِشَارَةً إِلَى إِقَامَةِ كُلٍّ مِنَ الصَّغِيرَاتِ وَالْكَبِيرَاتِ لَدَى الْعَطَنِ فِي انْتِظَارِ الْقَطْرِ ، فَالْآتَابُ لِلصَّغِيرَاتِ وَالْخِمَارُ لِلْبَالِغَاتِ ، وَاللهُ أَعْلَمُ .

[٣] تَدْعُو إِلَى الْكَرَمِ فِي أَشَدِّ أَوْقَاتِ الْمَجَاعَةِ وَالْقَحْطِ . الْحِفَاظُ : الْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ وَالذَّبُّ عَنِ الْمَحَارِمِ وَالْمَنْعُ عِنْدَ الْحُرُوبِ . وَحِرَارٌ : جَمْعُ حُرَّةٍ .

[٤] وَهُنَا لَفْتَةٌ ، فَالنَّدَى : الْجُودُ وَالسَّخَاءُ ، وَالنَّدَى أَيْضًا : الْمَطَرُ . تَقُولُ : بِبَذْلِ النَّدَى يَأْتِي النَّدَى . وَالزَّمَانُ كَالْمُسْتَعِيرِ الَّذِي يَأْخُذُ وَيَجِبُ أَنْ يَرُدَّ .

[٥] رَمَّقَ الْفَقِيرَ بِشَيْءٍ : أَعْطَاهُ مَا يُمْسِكُ بِهِ قُوَّتَهُ . وَرَمَّقَهُ : أَدَامَ النَّظَرَ إِلَيْهِ . الْعَارِضُ : السَّحَابُ . تَقُولُ : حَتَّى إِذَا بَلَغْنَا مِنَ الْجُوعِ مَبْلَغًا وَأَشْرَفْنَا عَلَى الْهَلَاكِ وَأَخَذْنَا نُرَاقِبُ أَنْفُسَنَا وَهِيَ تَحْتَضِرُ أَضَاءَ لَنَا سَحَابٌ . وَفِي الْبَصَائِرِ : (فَبَيْنَا نُؤَثِّلُ أَحْسَابَنَا = أَضَاءَ لَنَا عَارِضٌ فَاسْتَطَارَا) .

[٦] التَّقْدِيرُ : (وَأَقْبَلَ هَذَا الْعَارِضُ يَزْحَفُ زَحْفَ الْكَسِيرِ وَيُسَاقُ سِيَاقَ الرِّعَاءِ الْبِطَاءَ الْعِشَارَا) . الْكَسِيرُ : الْمُنْكَسِرُ الرِّجْلِ . وقَالَ الْخَلِيلُ فِي الْعَيْنِ : « وَنَاقَةٌ عُشَرَاءُ ، أَيْ : أَقْرَبَتْ ، وَسُمِّيَتْ بِهِ لِتَمَامِ عَشَرَةِ أَشْهُرٍ لِحَمْلِهَا . عَشَّرَتْ تَعْشِيرًا ، فَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ عُشَرَاءُ حَتَّى تَضَعَ ، وَالْعَدَدُ : عُشَرَاوَاتٌ ، وَالْجَمِيعُ : الْعِشَارُ ، وَيُقَالُ : بَلْ سُمِّيَتْ عُشَرَاءَ لِأَنَّهَا حَدِيثَةُ الْعَهْدِ بِالتَّعْشِيرِ ، وَالتَّعْشِيرُ : حَمْلُ الْوَلَدِ فِي الْبَطْنِ » . تُشَبِّهُ بُطْءَ السَّحَابِ كَزَحْفِ الْكَسِيرِ وَكَمَا يَسُوقُ الرُّعَاةُ الْإِبِلَ الْحَوَامِلَ (الْعِشَارَ) بِهُدُوءٍ وَرِفْقٍ حَتَّى لَا تُجْهَدَ ، وَثِقَلُهُ دَلِيلُ امْتِلَائِهِ بِالْمَاءِ .

[٧] تَصِفُ صَوْتَ الرَّعْدِ وَالرِّيحِ فِي أَطْرَافِ السَّحَابِ كَالْغِنَاءِ ، وَلَمَعَانَ الْبَرْقِ بِالضَّحِكِ ، وَهُطُولَ الْمَطَرِ بِالْبُكَاءِ .

[٨] فِي رِوَايَةٍ : (وَتُلْقِي إِزَارَا) . امْرَأَةٌ حُرَّةٌ : كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَالِ . تَارَةً تَشُدُّ ثِيَابَهَا فَيُضِيْءُ الْبَرْقُ ، وَتَارَةً تُرْخِيهَا فَيَحْجِبُ الْغَيْمُ نُورَهُ . أَيْ : كَأَنَّ الْبَرْقَ الْمُتَقَطِّعَ فِي السَّحَابِ كَامْرَأَةٍ جَمِيلَةٍ تَلْمَعُ ثُمَّ تَخْتَفِي ، أَيْ تَتَكَشَّفُ فَيَبْدُو بَيَاضُهَا وَتَتَسَتَّرُ فَيَغِيبُ بَيَاضُهَا . وَتُعْرِبُ عَنْ خَشْيَتِهَا أَنْ يَكْذِبَهُمْ .

فَلَمَّا خَشِينَا بِأَنْ لَا نَجَاءَ   وَأَلَّا يَكُونَ قَرَارٌ قَرَارَا

أَشَارَ لَهُ آمِرٌ فَوْقَهُ   هَلُمَّ ، فَأَمَّ إِلَى مَا أَشَارَا[1]

وَشَيَّعَ وَنَزَّعَ أَسْدَادَهُ   كَنَزْعِ الطَّبِيبِ الرَّفِيقِ السِّبَارَا[2]

فَإِنْ تَكُ دُوْدَانُ أَحْيَتْ بِهِ   زَمَانًا فَكَانَ لَهَا اللهُ جَارَا[3]

---

[1] تَقُولُ : فَلَمَّا خِفْنَا أَلَّا يُمْطِرَنَا وَأَلَّا يَسْتَقِرَّ لَدَيْنَا (أَيْ يَمُرَّ دُونَ أَنْ يُمْطِرَ) جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ مِنْ فَوْقِهِ أَنْ أَقْبِلْ هُنَا فَأَقْبَلَ . وَقَالَ عَنْتَرَةُ فِي مُعَلَّقَتِهِ : (جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ = فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كَالدِّرْهَمِ) . يُقَالُ : سَحَابَةٌ حُرَّةٌ : كَثِيرَةُ الْمَطَرِ . وَالْبِكْرُ : السَّحَابَةُ فِي أَوَّلِ الرَّبِيعِ الَّتِي لَمْ تُمْطِرْ . وَالْحُرَّةُ : الْبَيْضَاءُ ، وَقِيلَ الْخَالِصَةُ ، وَالثَّرَّةُ الْكَثِيرَةُ . وَالْقَرَارَةُ : الْمَوْضِعُ الْمُطْمَئِنُّ مِنَ الْأَرْضِ يَجْتَمِعُ فِيهِ السَّيْلُ ، وَكَأَنَّ الْقَرَارَةَ مُسْتَقَرُّ السَّيْلِ ، وَالْهَاءُ فِي عَلَيْهِ ضَمِيرُ الْمَوْضِعِ ، وَشَبَّهَ بَيَاضَهُ بِبَيَاضِ الدِّرْهَمِ ، لِأَنَّ الْمَاءَ لَمَّا اجْتَمَعَ اسْتَدَارَ أَعْلَاهُ فَصَارَ كَدَوْرِ الدِّرْهَمِ .

[2] شَيَّعَ فُلَانًا نَفْسُهُ عَلَى كَذَا : سَايَرَتْهُ وَرَغَّبَتْهُ . شَيَّعَ جَنَازَةَ فُلَانٍ : سَارَ خَلْفَهَا . فَشَيَّعَ هُنَا : بِمَعْنِي أَتَى . نَزَّعَ أَسْدَادَهُ : أَسْدَادُ جَمْعُ سَدٍّ ، وَهِيَ مَا يَحْجِبُ الْمَاءَ وَيَسُدُّهُ ، أَيْ فَتَحَ السَّحَابُ فَتَحَاتِهِ وَأَطْلَقَ مَاءَهُ . وَشَبَّهَتِ السَّمَاءَ أَوَّلَ قَطْرِهَا بِقِرَبٍ قَدْ نُزِعَ عَنْهَا أَسْدَادُهَا ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴾ . وَنَزَعَ الشَّيْءَ : جَذَبَهُ مِنْ مَقَرِّهِ وَأَزَالَهُ . وَقَالَ الْخَلِيلُ فِي الْعَيْنِ : « وَسَبَرَ الْجُرْحَ بِالْمِسْبَارِ : أَيْ نَظَرُ مَا مِقْدَارُهُ . وَالسِّبَارُ : فَتِيلَةٌ تُجْعَلُ فِي الْجُرْحِ » . وَالطَّبِيبُ الْحَاذِقُ عِنْدَ نَزْعِ السِّبَارِ يَتَرَفَّقُ وَيَتَلَطَّفُ خَشْيَةَ النَّزْفِ (أَيْ كَثْرَةِ مَا يَخْرُجُ مِنَ الدَّمِ) . وَشَبَّهَتْ إِرْسَالَ الْمَطَرِ بِعَمَلِ الطَّبِيبِ الرَّفِيقِ ، وَبِأَنَّ الْأَرْضَ الْمُجْدِبَةَ كَالْجُرْحِ ، وَالْمَطَرُ دَوَاءٌ يُعْطَى بِحِكْمَةٍ ، فَالسَّحَابُ حِينَ يُرْسِلُ مَاءَهُ لَا يُفْرِغُهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً بَلْ يُرْسِلُهُ بِتَدَرُّجٍ وَرِفْقٍ كَيْ يُحْيِيَ وَلَا يُهْلِكَ . وَهَذَا الْبَيْتُ الْبَلِيغُ وَالَّذِي يَلِيهِ لَمْ أَجِدْ لَهُمَا ذِكْرًا إِلَّا فِي كِتَابِ ابْنِ أَبِي الدُّنْيَا .

[3] دُودَانُ : اسْمُ قَبِيلَةٍ أَوْ مَوْضِعٍ . يُقَالُ : أَحْيَا الْقَوْمُ : أَخْصَبُوا . تَقُولُ : إِنْ كَانَتْ قَبِيلَتُنَا قَدْ أُحْيِيَتْ بِهَذَا الْمَطَرِ بَعْدَ زَمَنِ الْجَدْبِ ، فَذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ كَانَ جَارَهَا وَحَافِظَهَا ، وَكَفَى بِاللَّهِ جَارًا .

(خَاطِرَةٌ بَدَتْ لِي) : هَذِهِ الْقَصِيدَةُ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ مَعَانٍ لَمْ تَخْرُجْ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ . قَالَ الطَّبَرِيُّ : « خَوْفًا لِلْمُسَافِرِ مِنْ أَذَاهُ ... وَطَمَعًا لِلْمُقِيمِ أَنْ يُمْطَرَ فَيَنْتَفِعَ » . وَقَالَ الزَّجَّاجُ : الْخَوْفُ لِلْمُسَافِرِ لِمَا يَتَأَذَّى بِهِ مِنَ الْمَطَرِ ، وَالطَّمَعُ لِلْحَاضِرِ لِأَنَّهُ إِذَا رَأَى الْبَرْقَ طَمِعَ فِي الْمَطَرِ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْخِصْبِ . وَعَنِ الْحَسَنِ : خَوْفًا لِأَهْلِ الْبَحْرِ وَطَمَعًا لِأَهْلِ الْبَرِّ . وَعَنِ الضَّحَّاكِ قَالَ : الْخَوْفُ مَا يُخَافُ مِنَ الصَّوَاعِقِ وَالطَّمَعُ الْغَيْثُ .